

# ناس تحولت أفكارهم إلى وحي منزل لا يأتيه الباطل

جميعنا مدعوون على الشك.. فالشك أقل فتنة وخطرا من اليقين



الشك الفلسفي ضرورة فكرية (لوحة للفنان بسيم الربيس)

فالداعية لا يشك أن الخلافة قائمة وأن من لا يتبع ملته عدو كافر، والمنذر بنهاية العالم على يقين من أن كل شيء سيداعى وينهار بسبب الرأسمالية وتفترعاتها، والقائل بتفوق الجنس الأبيض مقتنع بأن الجنس الآري بات مهددا ولا بد من إبقائه بأي وسيلة. ولا أحد من أولئك أو من سواهم يستطيع أن ينظر إلى تلك القطاعات كمتعقدات. أي أن المسافة التي يفرضها الشك الفلسفي لا غنى عنها كي لا يفقد المرء صوابه فيغدو عدواً لمن يخالفه الرأي. من حق كل فرد أن يعترض وينتقد ويدافع عن أفكار يؤمن بها، ولكن دون أن يجعل نفسه أفكاره يقينية. من حقه أيضا أن يعتبر حقه أن يوهم الناس بأن ما اختاره حقائق ثابتة لا تقبل الجدل، لأن اليقين مُنذر بشرور لا حصر لها، وهذا ما حذر منه نيتشه في "هو ذا الإنسان"، إذ كتب يقول "ليس الشك ما يصيب المرء بالجنون، بل اليقين".

يبقى في مآهات العمى: تلك المسافة التي كان سقراط أول من أوجدها للفصل بين ما نظن أنه حقيقة وبين ما لا نعرف هل هو فعلا كذلك.

## الشك الفلسفي يخلق مسافة بين المفكر وقناعاته فلا يؤمن إيمانا أعمى بما يفكر بل يخضعه للفحص

أما ما نشهده اليوم من شك في كل شيء، فإفراطه يتوهمون أنهم يمكنون المعنى الخفي للظواهر، ويعرفون مسبقا خداع الحكام والميديا وأساليبهم في الزيف والتضليل، ويزعمون فضحها لا بأدلة وبراهين ثابتة، بل انطلاقا من يقينية راسخة لا تقبل الجدل بأنهم يمكنون الحقيقة.

وفئة الفلاسفة الذين جعلوا الشك أول مراتب اليقين، وطريقا لإدراك المعرفة الحق، وفق منهجية عقلانية استفاد منها العلم من بعدهم. وكان دعواتها ينطلقون من الشك في كل المسائل، لا ينفعون بظاهرها، ولا يؤمنون بحقيقتها إلا متى توصلوا إلى ما يثبت صحتها بالدليل المنطقي أو العلمي. ومن مشاهير من اتبع منهج الفلسفة الشكوكية في العالم الإسلامي الجاحظ لإسيما في "الحيوان"، وابن سينا في "الشفاء والتعليقات والمباحث الشرقية والإشارات والتنبيهات"، وابن الهيثم في "المناظر"، والإمام الغزالي في "المنقذ من الضلال". وقد استفاد من منهجهم ديكرات في جعل الشك وسيلة لمعرفة الحقائق.

والشك الفلسفي في الحالين يخلق مسافة بين الفكر وقناعاته، فلا يؤمن إيمانا أعمى بما يفكر، بل يخضعه للفحص والتحقيق حتى يبلغ جوهره. ولذلك قال الغزالي "من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر لم يفتكر".



الشك طريق إلى اليقين يقول الجاحظ، ولكن اليقين الذي لا يتأسس على نظر وتأمّل قد ينتج عنه تعصب أعمى، يقود صاحبه إلى معاداة من لا يشاطره أفكاره، ورغبة فرض قناعاته على الآخر بأي وسيلة.



حتى وقت قريب، كانت المعلومات، وكذا المعارف، تصدر عن هم جديرون بالثقة، فلا تقابل إلا بما تقابل به الأخبار الصحيحة من تسليم بفحواها، أو نقاش لمضمونها، قل أن يبلغ مبلغ الشك في المصدر نفسه، لأنه كما أسلفنا محل ثقة، وإن جادله بعضهم، فبطريقة علمية منهجية تروم الوصول إلى الحقيقة. غير أن الثورة التكنولوجية غيرت المعطيات، فصارت المعلومات تصدر عن كل الناس، حتى أولئك الذين ليس لهم في هذا المجال أو ذاك باع ولا نراع، وبيات الشك عامّا يصدر عن الجميع تجاه الجميع، ومن الجهال في أغلب الأحيان تجاه أهل الأدب والفكر والمعرفة، يجادلونهم بغير علم، ليس لهم من سلاح إلا حيازة صفحة على فيسبوك.

## اليقين والشك

رافقت موجة الشك العارمة التي اجتاحت المجتمعات موجة مماثلة من اليقينية، لا يؤمن أصحابها إلا بما يرون، نجت عنها خطابات وأعمال موسومة في عمومها بالهذيان والمغالطة واستغلال من لا يعملون عقولهم لتحليل ما يُعرض عليهم. منهم الإسلاميون والجهاديون والإنجيليون المبشرون والتأزيمون الجدد، ومنهم المؤمنون بنظرية المؤامرة ونهاية العالم والشيك وعلوية العرق الأبيض والشكوك في بعض الاكتشافات العلمية. ورغم الاختلافات العميقة بين مختلف تلك الجماعات، فإنها تتلقى في إيمانها بيقينية متعالية، واعتقادها الراسخ بالمتلاك الحقيقية، وإيمانها بأنها منذورة إلى نشر معتقداتها بين الناس، ووضعها موضع تطبيق بأي طريقة. والخطر لا يتأتى من الشك لأنه في جوهره النواة الصلبة للموقف الفلسفي من العالم منذ سقراط، كشكل مخصوص للوقوف موقف الحذر من كل اليقينية، حتى أكثرها انتشارا وأبلغها تأسلا، ولكن انحرافه من وسيلة لبسوغ اليقين إلى موقف دغمائي خطير يبدأ عندما

يُقدّم المعتد كمعرفة واليقين كحقيقة مطلقة. فاللاحظ أن دعاة تلك الدغمائيات، ينطلقون من يقينية مشكوك في صحتها، يتصورونها فريدة، متكتمة، لا تقبل النقاش، ليضفوا على أنفسهم شرعية العمل على فرضها في شتى الأوساط لأن قدرها أن تنتصر وتُسود، شأن الوحي المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن ثمّ يستمدون مبرراتهم لإقصاء من لا يشاطرونهم دغمائيتهم، وتصفيتهم إن اقتضى الأمر، لأن الذين يضعون أفكارهم موضع شك، أو يعترضون عليها، أو ينتقدونها ويكشفون عن علاتها، يصبحون أعداء لا بد من قمعهم وإزلالهم وحتى القضاء عليهم القضاء المبرم. أي أن اليقين يفقد صاحبه الصواب، فيجوله إلى وحش، كما لاحظنا في أعمال مقاتلي داعش، وكل الجماعات المتطرفة التي تغتال من لا يشاطرها يقينيتها. أما الشك في صورة اليومية المتداولة، فهو صنو للحيرة والتردد وحتى الريبة،

وقد يغدو وسيلة لتكذيب كل ما يصدر عن حكام لم يوفوا يوما بوعد، والطعن في ما لا يمكن إدراكه كغزو الفضاء، أو ما يشنّه بمخالفته الدين كنظرية الشبوة والارتقاء، كذلك الذي يجتاح المواقع الاجتماعية، غير أنه لا يذهب أبعد من ذلك، فلا يُضمر حقدا ولا يهدّد نفسا بقتل.

## امتلاك الحقيقة

إن هو إلا شك مجاني، لا يؤسس معرفة، بخلاف الشك الفلسفي الذي قام منذ الإغريق إلى يومنا هذا على فئتين متميزتين: فئة الفلاسفة الشكوكيين الذين يمارسون شكّا دائما في كل ظاهرة، لاستحالة بلوغ الحقيقة في نظرهم، رغم ما يميز مذاهبهم من فروق في ممارسة ذلك الشك الفلسفي، من بيرون (365-275 ق م) إلى سكتوس إمبريكوس (160-210)، ومن موتاني إلى إين ديفيد هيوم، ومن برتراند راسل إلى الفلاسفة المحدثين.

# الطائفون حولوا «بيت القبطية» إلى محل زنا

## سامح الخطيب

القاهرة - في أحدث رواياته "بيت القبطية" ينهل الروائي المصري أشرف العشماوي بمعول الكلمات على أضلاع مثلث الربيع في السرير العربي؛ الدين والجنس والسياسة، ليحدث فجوة قد تفتح المجال لحديث أكثر صدقا عن مشكلات طال السكوت عنها. تدور أحداث الرواية، الصادرة عن الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة، في

سنوات ما قبل الانتفاضة الشعبية في مصر عام 2011 التي أنهت حكم حسني مبارك، وتستعرض رحلة وكيل نيابة حديث التخرج داخل إحدى القرى التي تمثل نموذجا مصغرا لأي مدينة أو محافظة بمصر.

اختار المؤلف للقرية مسرح الأحداث اسم «الطابعية» في دلالة على أنها دوما مفعول بها لا فاعل بل ويسميتها البعض «التابعية» ويشكل المسيحيون 80 بالمائة من سكانها لكن معظم الأراضي ملك للمسلمين.

بصاف بطال الرواية نادر فايز كمال منذ يومه الأول في القرية وإبلا من المشكلات والحوادث المثيرة للشكوك منها القتل وحرق المنازل والمحاصيل وتسميم الماشية، لكنها تنتهي جميعا بعبارة واحدة «الفاعل مجهول»، رغم أنه يبدو معلوما لدى أهل القرية الذين يؤثرون الصمت، ويعالجون مشكلاتهم بطرق أخرى بعيدة عن القانون.

تتكرر الحوادث ومرور الأيام يبدأ وكيل النيابة في فهم الأمور وربطها ببعضها البعض. اللعبة لها قواعد أخرى وتحرّكها أطراف ذات مصالح من وراء الستار، من هذا الجانب المتعصبون دينيا الذين يؤججون نار الفتنة بين المسلمين والمسيحيين، ومن الجانب الآخر الأمن الذي يستغل الأحداث في إثبات أهمية وجوده وإبقاء الجميع تحت السيطرة. صدام القانون مع الطائفية والنفوذ الأمني لم يعبر عنه المؤلف في عجز وكيل النيابة عن تحقيق العدالة فحسب بل

بلوره في صورة أعمق حين أبرز في أكثر من مقطع المسدس الذي يضعه نادر حول خصره ويفترض أن يتسلح به لحماية نفسه، لكنه في الواقع قديم جدا وفارغ من الطاقات، تماما مثل القوانين التي عفا عليها الزمن والأحكام القضائية التي لا تخدم الدين؟.

هنا ي طرح المؤلف سؤالا محوريا يبدو أنه يبلور معاناة وكيل النيابة الشباب «هل الدين والقانون في خدمة المجتمع، أم أن المجتمع والقانون هما اللذان في خدمة الدين؟».

المؤلف اختار للقرية مسرح الأحداث اسم «الطابعية» في دلالة على أنها دوما مفعول بها لا فاعل

بالتوازي مع حكاية وكيل النيابة نادر فايز كمال يسرد المؤلف حكاية هدى يوسف حبيب، وهي المرأة المقصودة في عنوان الرواية «بيت القبطية». هدى فتاة مسيحية مات والدها وهي صغيرة فتزوجت أمها من شاب يصغرها بعشر سنوات، فما كان منه إلا أن اعتدى على الابنة. تتواصل مأساة الفتاة بزواجها من رجل على غير دينها ولا تحبه، لكنه الأنسب للتستر على ما حدث لها.

تهرب هدى من قرينتها دون تخطيط مسبق لتواجه الجهول الذي يقودها

إلى قرية الطابعية، وهناك تصبح مثل ورقة شجر تقذفها الرياح حتى يهدبها القدر حياة جديدة وزوجا من دينها ويبتا جديدا يصبح مقصدا للتبرك من المسيحيين والمسلمين على حد سواء بسبب أفعالها الطيبة ويطلق عليه «بيت القبطية». لكن لأن الحياة ليست دائما عادلة يعود شبح الماضي من جديد ليطل برأسه، وتتعكر حياة هدى التي تتحول بين ليلة وضحاها من امرأة مبروكة وصالحة إلى منبوذة من الكنيسة ومتهمة في قضية زنا.

يستخدم مؤلف الرواية التحولات التي حدثت في حياة هدى خلال فترة قصيرة في تجسيد ما قد يعانیه المرء في حياته بسبب ديابنته التي لم يخترها من الأساس وكذلك يعجز عن تغييرها بسبب قيود المجتمع.

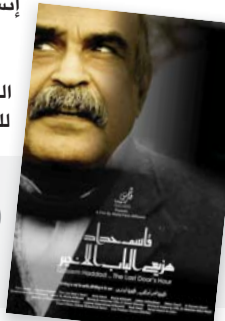
وفي حديث بينها وبين نفسها تقول هدى «لم أعد أستطيع العيش في الظل، حياتي كلها على هامش السعادة والاستقرار، هاربة دائما من أشباح كثيرة، فقر وظلم وقهر واضطهاد، وهي لا تتوانى عن مطاردتي وتلحق بي دوما، لماذا يتعامل معي القدر كنبذة رقيقة، ليطلق رياحه نحوي كل حين لتتلاعب بي؟ هل لو انقلب حجرا صلبا بلا مشاعر لكان حالي أفضل ولنعمت بالاستقرار؟». ورغم أن نادر وهدى التقيا في بداية الرواية وجمعتهما بعض المواقف فإن لقاءهما في النهاية كان هو الاختيار الحقيقي للأنثى داخل قاعة المحكمة وتحت سقف العدالة.

# احتفاء شعري وسينمائي بقاسم حداد

ديب - تحفّي مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية مساء الخميس 31 أكتوبر الجاري بالشاعر البحريني قاسم حداد، الفائز بجائزة الشعر من المؤسسة في الدورة السابعة (2000-2001).

وتنظم المؤسسة أسبوعية شعرية للشاعر وحفل توقيع كتابه «عزلة الملكات وعلاج المسافة» وعرض فيلم «هزيع الباب الأخير» للمخرج خالد الرويعي، وذلك في مبنى المؤسسة بشارع الرقة بدبي. وبهذه المناسبة أصدرت المؤسسة كتاب «عزلة الملكات وعلاج المسافة» ضمن سلسلة «الفائزون»، ويأتي هذا الكتاب الشعري الجديد لقاسم حداد مؤكدا على تفرد تجربته التي تشكلت في منطقة الخليج العربي في الربع الأخير من القرن الماضي، حيث دعا من خلال قصيدته إلى تكريس رؤية جديدة تتعامل مع الحياة بصورة إنسانية عصرية، واضعا في الاعتبار التطورات المعرفية التي يمر بها إنسان العصر. كما يرصد فيلم «هزيع الباب الأخير» للمخرج خالد

قاسم حداد دعا من خلال قصيدته إلى تكريس رؤية جديدة تتعامل مع الحياة بصورة إنسانية عصرية



سؤال الرواية المحوري هو هل الدين والقانون في خدمة المجتمع، أم أن المجتمع والقانون في خدمة الدين